تمثلات الثقافة والدين في أدب الرحلة
دراسة نقدية في كتاب أيام في النيجر لمحمد ناصر العبودي

Representations of Culture and Religion in Travel Literature: A Critical Study of Days in Niger by Mohammed Nasser Al-Aboudi

10.35781/1637-000-176-006

الباحث/ موسى حسن*

*باحث دكتوراه -قسم الأدب والبلاغة – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الملخص

تتناول هذه الدراسة تمثلات الثقافة والدين في كتاب أيام في النيجر للرحالة السعودي محمد ناصر العبودي، من خلال مقاربة نقدية تنتمي إلى حقل الدراسات الثقافية وأدب الرحلة، وتهدف إلى الكشف عن الكيفية التي تم بها بناء صورة المجتمع النيجري داخل الخطاب الرحلي، ورصد الأنساق الثقافية والدينية التي تحكّمت في تشكيل هذه الصورة، وقد اعتمد البحث المنهج الثقافي بوصفه إطاراً نظرياً وإجرائياً لتحليل النص، مع التركيز على تمثيل المكان والإنسان والعادات الاجتماعية والمؤسسات الدينية، واستجلاء آليات السرد والوصف والخطاب التي أسهمت في إنتاج المعنى داخل الرحلة.

وتوصّلت الدراسة إلى أنّ العبودي قدّم تمثيلًا ثقافيًا متوازنًا للمجتمع النيجري، كشف من خلاله عن ثراء البنية الاجتماعية والتنوع الثقافي، مع إبراز قيم التعايش والكرم والانتماء الحضاري المشترك، وقد أظهرت النتائج أن الدين مثّل المرجعية المركزية في تفسير الواقع النيجري وتقويمه، وأنّ الإسلام ظهر في النص بوصفه عنصراً جامعًا لمكوّنات المجتمع المختلفة، ومكوّنًا أساسيًا للهوية الثقافية. كذلك بينت الدراسة أنّ الخطاب الرحلي عند العبودي تجاوز الوظيفة الوصفية إلى أداء أدوار معرفية ودعوية وإصلاحية، وأنّ البنية السردية للكتاب قامت على التفاعل بين السرد والتوثيق والوصف والتأويل، بما منح النص قيمة أدبية وثقافية وتوثيقية متميزة. وانتهت الدراسة إلى أنّ كتاب أيام في النيجر يمثل نموذجًا مهمًا للرحلة العربية المعاصرة التي تسهم في بناء المعرفة بالآخر وإعادة تمثيل الثقافة والدين في الفضاء الإفريقي الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة - التمثيل الثقافي - التمثيل الديني - العبودي

ISSN : 2410-1818

Representations of Culture and Religion in Travel Literature: A Critical Study of Days in Niger by Mohammed Nasser Al-Aboudi

MOUSSA HASSANE*

*PhD Candidate, Department of Literature and Rhetoric, Islamic University of Madinah

Abstract

This study examines the representations of culture and religion in Days in Niger by the Saudi traveler Mohammed Nasser Al-Aboudi through a critical approach belonging to the fields of cultural studies and travel literature. It aims to reveal how the image of Nigerien society was constructed within the travel discourse and to identify the cultural and religious patterns that governed the formation of this image. The study adopts the cultural approach as both a theoretical and methodological framework for textual analysis, focusing on the representation of place, the individual, social customs, and religious institutions, while elucidating the narrative, descriptive, and discursive mechanisms that contributed to the production of meaning in the travel account.

The study concludes that Al-Aboudi presented a balanced cultural representation of Nigerien society, through which he revealed the richness of its social structure and cultural diversity while highlighting the values of coexistence, hospitality, and shared civilizational belonging. The findings further demonstrate that religion functioned as the central frame of reference for interpreting and evaluating Nigerien reality, and that Islam emerged in the text as a unifying element among the various components of society and as a fundamental component of cultural identity. The study also shows that Al-Aboudi's travel discourse transcended its purely descriptive function to perform cognitive, missionary, and reformist roles. Moreover, the narrative structure of the book was founded on the interaction between narration, documentation, description, and interpretation, thereby endowing the text with distinctive literary, cultural, and documentary value. The study concludes that Days in Niger constitutes an important model of contemporary Arabic travel literature that contributes to the construction of knowledge about the Other and to the re-representation of culture and religion in the African Islamic space.

Keywords: Travel Literature; Cultural Representation; Religious Representation; Al-Aboudi.

ISSN : 2410-1818

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

يمثّل أدب الرحلة أحد أهم الأجناس الأدبيّة والفنون النثرية القادرة على رصد التفاعلات الإنسانيّة والثقافيّة بين الشعوب والأمم؛ إذ لا يقتصر دوره على نقل مشاهدات الرحالة ووصف البلدان والأمكنة والوقائع، بل يتخطى ذلك إلى إعطاء صورة معرفيّة وثقافيّة عن الآخر، والكشف عن الهويّة والعادات والتقاليد والتمثلات الدينية والاجتماعيّة الّتي تشكّل رمز وهويّة المجتمعات، ومن ثمّ غدا أدب الرحلة وثيقة حضاريّة تجمع بين القيمة الأدبيّة والمعرفيّة، وتوفّر مادّة ثريّة للفنون الأدبيّة والدّراسات النقدية المعاصرة.

وتكتسب الرحلات الموجهّة إلى القارة الأفريقيّة أهميّة خاصة؛ لما تنطوي عليه من تصوير لفضاءات ثقافيّة ودينيّة متنوّعة، وما تكشف عنه من أوجه التفاعل المعرفي بين المجتمعات الإسلاميّة في أفريقيا والعالم الإسلامي الأوسع، ومن بين هذه الرحلات تبرز رحلة محمد بن ناصر العبودي بعنوان (أيام في النيجر) التي تقدّم صورة تفصيليّة عن المجتمع النيجري، وتوثّق جوانب متعدّدة من حياته الثقافيّة والدينيّة والاجتماعيّة، من خلال مشاهدات مباشرة وانطباعات ذاتيّة امتزج فيها الوصف بالتفسير، والرصد والتقويم.

ولا تأتي أهمية هذا الكتاب من كونه سجلًا لوقائع السفر فحسب؛ وإنما من كونه نصًا ثقافيًا حافلًا بالدلالات والتمثلات التي تعكس رؤية الرحالة للثقافة المحلية، وتصوراته للهوية الدينية، وأنماط التدين، والمؤسسات التعليمية، والعلاقات الاجتماعية، فضلًا عما يختزنه من إشارات ودلالات إلى التفاعل بين الموروث المحلي والانتماء الإسلامي في المجتمع النيجري. ومن هنا تبرز الحاجة إلى دراسة نقدية تستجلي آليات تمثيل الثقافة والدين في هذا النص الرحلي، وتكشف عن الصورة الذهنيّة التي تشكلت بها صورة المجتمع النيجري في خطاب الرحالة.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا البحث الموسوم بـ**«تمثلات الثقافة والدين في أدب الرحلة: دراسة نقدية في كتاب أيام في النيجر لمحمد ناصر العبودي»** إلى تحليل الأنساق الثقافية والدينية التي تجلت في الرحلة، ورصد أبرز مظاهرها وتجلياتها النصية، والكشف عن الرؤية التي حكمت تمثيلها داخل الخطاب الرحلي، مع بيان ما يضطلع به النص من وظائف معرفية وثقافية تسهم في تعزيز فهم الواقع الاجتماعي والديني في النيجر.

ISSN : 2410-1818

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من عدة اعتبارات:

1- انتماؤه إلى حقل أدب الرحلة بوصفه مجالًا خصبًا للدراسات الثقافية المعاصرة.

2- تسليطه الضوء على تجربة رحلية عربية معاصرة في إفريقيا، ممثلة في كتاب أيام في النيجر.

3- إسهامه في تحليل صورة "الآخر الإفريقي" في الكتابة العربية الحديثة.

4- ربطه بين النقد الأدبي والدراسات الثقافية والدينية، بما يعزز المقاربة البينية.

أسباب اختيار الموضوع:

1- ندرة الدراسات التي تناولت أدب الرحلة إلى إفريقيا بمنهج نقدي ثقافي معمّق.

2- أهمية كتاب أيام في النيجر بوصفه نصًا يجمع بين الرصد الميداني والتأمل الحضاري.

3- رغبة الباحث في الكشف عن أنماط تمثيل الدين والثقافة في خطاب الرحلة العربي.

4- صلة الموضوع بالقضايا المعاصرة مثل: الهوية، التفاعل الحضاري، تمثيل الآخر.

حدود الدراسة:

تركّزت الدراسة في الحديث عن كتاب: أيام في النيجر، لمحمد بن ناصر العبودي، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتنقيب لم أجد دراسة تناولت هذا الكتاب، بيد أنّ ثمّة دراسات تطرقت لأدب الرحلة عند محمد بن ناصر العبودي، منها:

1- عميد الرحالين محمد بن ناصر العبودي، حياته، إسهاماته، جهوده، لمحمد بن عبد الله المشوح.

2- الرحلات، وأعلامها في الأدب السعودي؛ لمحمود سليمان الردادي.

3- أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية؛ لعبد الله بن أحمد حامد آل حمادي.

4- علماء ومفكرون عرفتهم؛ محمد المجذوب.

5- الشيخ العلامة الأديب الرحالة محمد بن ناصر العبودي؛ لمحمد بن أحمد سيد.

6- دراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي؛ لمحمد بن عبد الله المشوح.

7- الاستطراد السردي عند الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي، كتاب: من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء أنموذجا لفلاح بن مرشد العتيبي.

ISSN : 2410-1818

8- رحلات محمد بن ناصر العبودي الهندية تثمين أدبي وتحليل نقدي لعطاء الرحمن الأعظمي، وهذه الدراسة يمكن عدّها أقرب الدراسات إلى موضوع دراستي هذه، فإنّ الباحث تعرض فيها عن أدب الرحلة وفن الأسفار للرحالة بطريقة أدبية نقدية، من خلال رحلات الهند.

9- الحضور العجائبي في رحلات محمد ناصر العبودي: نماذج مختارة لسالم محمد الضمادي.

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث المنهج الثقافي لتأطير هذه الدراسة بوصفه إطارًا نظريًا وإجرائيًا من خلال دراسة وتحليل كتاب أيام في النيجر.

أسئلة الدراسية وفرضياتها:

تنطلق الدراسة من الفرضيات والتساؤلات الآتية:

- كيف تمثل الثقافة النيجيرية في خطاب الرحلة عند العبودي؟

- ما طبيعة حضور الدين في النص: هل هو توصيفي أم تقويمي أم دعوي؟

- كيف تتشكل صورة "الآخر" في الكتاب؟ وهل تتسم بالموضوعية أم بالتمركز الثقافي؟

- ما الأدوات الفنية والسردية التي أسهمت في بناء هذا التمثيل؟

هيكل الدراسة:

المقدّمة: وقد اشتملت على أهمية الدراسة، وأسباب اختيارها، ومنهج الدراسة وحدودها، والدراسات السابقة.

التمهيد: وقد تحدّث الباحث فيه عن:

- التعريف بأدب الرحلة: المفهوم والتطور.

- التعريف بالمؤلف، وكتابه أيام في النيجر.

- التمثيل الثقافي والديني (مفاهيم ومصطلحات).

المبحث الأول: التمثيل الثقافي في النص الرحلي.

المبحث الثاني: التمثيل الديني في النص.

المبحث الثالث: البنية السردية وآليات الخطاب.

ثم عُقدت خاتمة وقد شملت على النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ثم ثبت المصادر والمراجع.

ISSN : 2410-1818

التمهيد

تعريف أدب الرحلة: المفهوم والتطور

يُعدُّ أدب الرحلة أحد الأجناس السردية التي نشأت من تفاعل الإنسان مع المكان والآخر، إذ يجمع بين الخبرة الواقعية والتشكيل الأدبي، ويقدّم صورة مركبة للعالم من خلال مشاهدات الرحالة وانطباعاته وتأملاته. والرحلة في أصلها اللغوي مشتقة من الارتحال، يقال:

رَحَلَ عن المكان يرحل، وهو راحل من قومٍ رُحَّل، أي: انتقل، والترحل والارتحال الانتقال، وهي: الرِّحلة، والرُّحلة[1]، وهي عكس الإقامة، وفيها تطرأ على المرتحل أحوال من التعب، وتتم معرفة أماكن أخرى غير التي أَلِف الإقامة فيها[2].

واصطلاحًا: هو «مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرَّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد»[3]، وقد عرفه بعضهم بأنه «ذلك التأليف النثري المطول الذي يتحدث الأديب فيه عن رحلة تجشَّم مشاقها، ومر من خلالها بمدن وقرى، وعبر جبالًا وأودية وصحاري، وواجه أحداثًا، ولقي مفاجآت وغرائب لا يعرفها في بيئته»[4].

ويعدّ أدب الرحلة «تجربة ذاتية لها جوانبها الموضوعية العامة والاجتماعية والسياسية والفنية والسردية الخاصة»[5]، وهي فن قصصي بالضرورة[6]؛ يحرص الأديب فيه على عنصر الإمتاع؛ كي يأخذ مكانه اللائق بين الأجناس الأدبية الأخرى؛ كالقصة، والرواية، والسيرة الذاتية، وغيرها، وأدب الرحلة يصف طبيعة الحياة وصراعاتها، ويصور للمتلقي مشاهد لم يرها لكنه يتخيلها أثناء سرد القاص لها، «ولا ينبغي الخلط بين أدب الرحلة ونصوص السيرة الذاتية؛ لأن أدب الرحلة يركز بالدرجة الأولى

([1]) لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1428هـ/2008م، مادة: ر.ح.ل.

([2]) ينظر: زهرة بن يمنية، أدب الرحلة الحديث وخصائصه: قراءة في رحلات أبي راس الناصري الجزائري، مجلة ابن منظور لعلوم اللغة العربية، العدد الأول شعبان 1441هـ/ 2020م، 328-329.

([3]) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، ط2، 1948م، مكتبة لبنان، 16.

([4]) أدب الرحلات، عبد الباسط بدر، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، بيروت، العدد3، مجلد1، 1415هـ/1995م، 12.

([5]) سوسولوجيا الأدب، روبير اسكاربيت، ترجمة: آمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1983م، 26.

([6]) ينظر: الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1978م، 6.

ISSN : 2410-1818

على وصف العالم الخارجي، والسيرة الذاتية تركز على سرد قصة حياة الكاتب»[1]، وأدب الرحلة بوصفه لونًا من ألوان السرديات، تتقاطع مع معارف عدّة، ويأخذ من كل شيء بطرف، فقد يكون تاريخًا، أو علم اجتماع، أو جغرافيا، ، أو علم دراسة السكان، أو علم السير الذاتية، وما شابه ذلك من أنواع السرديات العلمية والإبداعية.

تعريف بالمؤلف، وكتابه أيام في النيجر:

هو محمد بن ناصر بن عبد الرحمن بن عبد الكريم بن عبد الله بن محمد بن عبود ثم حُلِّي الاسم بال، وأضيفت الياء إلى عبود؛ فصار العبودي، المولود بمدينة بريدة بالقصيم عام 1345هـ، تلقى تعليمه الأولي بالكُتَّاب، ثم بالمسجد على أيدي كبار العلماء، وعُيِّن مديرًا للمدرسة المنصورية ببريدة، ثم مديرًا للمعهد العلمي ببريدة عام 1372م، ومديرًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام 1380م، ثم نُقل إلى الأمانة العامة للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة عام 1380م، ثم عُيِّن في منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي عام 1400هـ[2].

قام بعدة رحلات حول العالم في سبيل الدعوة الإسلامية[3]، وقد بلغت مؤلفاته المطبوعة (207)كتب، منها (141) كتابًا في أدب الرحلة، أما المخطوطة فقد بلغت (100) كتاب، منها(46) في أدب الرحلة[4]، والعبودي داعية، ومؤرخ، وقاص، وروائي، ولغوي، وأديب، وشاعر، وقد كُرِّم العبودي، ونال ميدالية الاستحقاق في الأدب، وكُرِّم في بعض الأندية، والصوالين الأدبية؛ كنادي القصيم الأدبي، واثينية خوجة، وثلوثية المشوَّح، ونال العديد من الهدايا والدروع، وحصل على العضوية في عدد من المجالس والهيئات، وسميت باسمه بعض الجوامع الإسلامية في بعض البلدان[5].

أما الكتاب الذي بصدد الدراسة وقد وقع اختيار الباحث عليه؛ وعنوانه: أيام في النيجر للرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي، وهو أحد مؤلفاته التي تندرج ضمن سلسلة رحلاته الإفريقية التي وثّق فيها مشاهداته وانطباعاته عن المجتمعات الإسلامية في القارة الإفريقية، ولا سيما في البلدان

([1]) كتابة الذات، دراسات في السيرة الذاتية، صالح معيض الغامدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013م، 20.

([2]) ينظر: الاستطراد السردي عند الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي كتاب: من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء أنموذجا، فلاح بن مرشد بالعتيبي، مجلة الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها، العدد 5، ج2، 593.

([3]) ينظر: عميد الرحالين، محمد بن ناصر العبودي، حياته، إسهاماته، جهوده، محمد بن عبد الله المشوح، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، ط2، 1435هـ/2014م، 52، و379.

([4]) ينظر: المرجع نفسه، 165-206، و252، 261.

([5]) ينظر: عميد الرحالين، محمد بن ناصر العبودي، حياته، إسهاماته، جهوده، محمد بن عبد الله المشوح، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، ط2، 1435هـ/2014م، 375، وما بعدها.

ISSN : 2410-1818

التي لم تحظَ بحضور واسع في الكتابات العربية المعاصرة. وقد دوّن العبودي في هذا الكتاب تفاصيل رحلته إلى جمهورية النيجر، مقدّمًا صورة وصفية وثقافية واجتماعية ودينية عن هذا البلد من خلال مشاهداته المباشرة ولقاءاته المتنوعة.

تناول المؤلف في الكتاب التعريف بالنيجر من حيث موقعها الجغرافي، وتاريخها، وسكانها، وأقاليمها، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، كما عرض أبرز الملامح الحضارية والثقافية للمجتمع النيجري، متوقفًا عند العادات والتقاليد واللغات المحلية وأنماط الحياة اليومية، ومظاهر التعايش بين مكوّنات المجتمع المختلفة. كما أفرد مساحة واسعة للحديث عن الواقع الديني في البلاد، فعرّف بانتشار الإسلام فيها، وتاريخ دخوله، وأثره في تشكيل الهوية الثقافية للمجتمع، وتناول أوضاع المؤسسات الإسلامية، والمساجد، والمدارس القرآنية، ومراكز التعليم العربي والإسلامي، والجهود الدعوية والعلمية التي يضطلع بها العلماء والدعاة في مختلف المناطق.

وسجّل العبودي خلال رحلته لقاءات عديدة مع العلماء والدعاة والمسؤولين ووجهاء المجتمع، كما وصف المدن التي زارها والقرى التي مرّ بها، والطرق ووسائل النقل والأسواق والمرافق العامة، مستعرضًا ما لاحظه من مظاهر التنمية والتحديات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجه السكان. ولم يقتصر الكتاب على الوصف الخارجي للأمكنة والأشخاص، بل تضمّن تأملات الرحالة وتقويماته وانطباعاته حول الواقع الثقافي والديني، ورؤيته لعلاقة المجتمع النيجري بالإسلام والعربية.

وقد وقع اختيار الباحث على هذا الكتاب دون غيره من رحلات العبودي الإفريقية؛ لما يزخر به من مشاهدات ثقافية ودينية مكثفة، ولما تتبوؤه جمهورية النيجر من مكانة خاصة في غرب أفريقيا بوصفها مجتمعًا يغلب عليه الطابع الإسلامي، الأمر الذي يجعل الكتاب ميدانًا خصبًا للكشف عن الكيفية التي مثّل بها الرحالة الثقافة المحلية والهوية الدينية، ورصد الآليات السردية والوصفية التي أسهمت في تشكيل صورة المجتمع النيجري في الخطاب الرحلي المعاصر.

التمثيل الثقافي والديني؛ المفاهيم والمصطلحات:

يُعدُّ ضبط المصطلحات والمفاهيم من المرتكزات المنهجية الأساسية في الدراسات النقدية والثقافية؛ إذ يسهم في تحديد الإطار النظري الذي تنطلق منه القراءة التحليلية للنصوص. ومن ثمّ فإن الوقوف عند مفهوم التمثيل، ثم التمثيل الثقافي والديني، يُعدّ ضرورة علمية لفهم الكيفية التي تتجلى بها الثقافة والدين في الخطاب الرحلي موضوع الدراسة.

ISSN : 2410-1818

أولًا: مفهوم التمثيل

يرجع مصطلح التمثيل في أصله اللغوي إلى مادة (مثل)، التي تدل على المشابهة والتصوير وإقامة الشيء مقام غيره. جاء في لسان العرب أن المِثْل هو النظير والشبيه والتسوية، وأن التمثيل هو التصوير والمحاكاة وإظهار صورة الشيء في الذهن أو الواقع[1].

واصطلاحا: هناك عدة تعريفات لمفهوم التمثيل من عدة زاوية؛ ونظرا لكثرتها فسوف أقتصر على تعريف واحد هو المتداول كثيرا في سياق دراسات الأدب والثقافة ويُقصد به: عملية إنتاج المعنى وإعادة بناء الواقع داخل الخطاب بواسطة اللغة والرموز والأنظمة الدلالية، لا مجرد نقله أو عكسه بصورة آلية؛ إذ تتدخل رؤية الكاتب وخلفيته الثقافية في تشكيل صورة الموضوع المُمَثّل[2].

ثانيا: مفهوم الثقافة

الثقافة لغة: جاء في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي وهو من أوائل المعاجم التي ظهرت فيها كلمة ثقافة: ثقف: قال أعرابيّ: إنّي لَثْقُف لَقف راوٍ رامٍ شاعر، وثَقفت فُلانًا في موضع كذا أي أخذناه ثَقفًا، وثَقيفٌ: حي من قيسٍ، وخَلٌ ثقيفٌ قد ثقف ثقافةً. والثقف مصدر الثقافة، وفِعله ثقف إذا لزم، وثقفت الشيءَ وهو سرعة تعلُّمه. وقلبٌ ثَقْفٌ أيّ سريع التعلّم والتّفهّم[3].

واصطلاحا: يلاحظ تباينًا في التعريفات الاصطلاحية للمفهوم اللغوي لكلمة الثقافة؛ تبعًا للأسس المعرفيّة والخلفيات التي يتحدّث بها المعرّفون وطريقتهم، سواء أتناولوا الأمر بتجرّد أم بشيء من التفصيل، وقد جاء معنى مصطلح الثقافة في أبسط مستوياته في المعجم الفلسفي لمراد وهبة بالتعريف الآتي: الثقافة هي جميع المناشط والاهتمامات المميزة لشعب ما[4].

ثالثا: مفهوم الدين

الدين في اللغة: يأتي بمعنى الجزاء والمكافأة، يقال: دِنته بفعله دَيْنًا أي جزيته، ويوم الدين: يوم الجزاء، يقال في المثل: كما تدين تدان: أي كما تُجازى تجازى أي تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت، وقيل: كما تفعل يُفعل بك، والدين يأتي بمعنى الطاعة، يقال دنته ودنت له أي أطعته، قال عمرو بن كلثوم:

وأيامًا لنا غرا كراما عصينا الملك فيها أن ندينا[5]

([1]) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، د.ت، ج1، مادة مثل. دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج11، ص610–612.

([2]) السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003م، ص33–34.

([3]) معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مصر، ط1، ج5، 138، مادة (ث،ق،ف).

([4]) المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1979م، ط3، 139.

([5]) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مجلد 13، 168–171.

ISSN : 2410-1818

ويكون معنى الدين في اللغة: المذهب أو المعتقد الذي تّخذه المرء عمليًا أو نظريًا، ويكون المعنى اللغوي كذلك لكلمة (الدين) الجزاء والطاعة والملك والحكم والتدبير[1].

الدين في الاصطلاح:

لقد عرف الدين في العرف والاصطلاح بعدة تعريفات، ويجب التنبيه إلى أنّ ثمة فرق بين تعريفات التي ذهب إليها العلماء المسلمون، وبين التعريفات التي نقلت عن علماء غير مسلمين.

وسأكتفي بتعريف واحد من التعريفات التي ذهب إليها العلماء المسلمون وهو: الدين وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات[2]. وبالنظر في هذا التعريف يلاحظ انحصار التعريف في الدين المنزل من عند الله عز وجل، ويخرج من هذا التعريف كل دين من صناعة البشر، وهذا ما يُدرك في الجملة التي وردت في التعريف وهي (الدين وضع إلهي). إلا أنّ هذا التعريف يتناقض مع بعض الآيات الواردة في القرآن الكريم، فالدين قد يطلق على الديانات الوضعية من ذلك قوله تعالى: (إنّ الدين عند الله الإسلام) وقوله تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين). وقوله تعالى: (ورضيت لكم الإسلام دينا).

رابعا: مفهوم التمثيل الثقافي والديني

يقصد بالتمثيل الثقافي والديني في هذه الدراسة الكيفية التي صوّر بها الرحالة محمد بن ناصر العبودي المظاهر الثقافية والدينية في المجتمع النيجري من خلال خطابه الرحلي، سواء ما تعلق بالعادات والتقاليد واللغة والملبس والعلاقات الاجتماعية، أم ما تعلق بالمؤسسات الدينية والشعائر الإسلامية والتعليم الشرعي وحضور الدين في الحياة العامة.

وفي ضوء هذا التصور، يمكن النظر إلى أدب الرحلة بوصفه أحد أهم الأجناس الأدبية التي تقوم على إنتاج التمثيلات الثقافية؛ لأن الرحالة لا يكتفي بوصف الأمكنة والأشخاص والأحداث، بل يعيد تشكيلها داخل نصه من خلال منظوره الخاص وخبراته السابقة ومخزونه المعرفي والقيمي. ولهذا فإن صورة المجتمعات والشعوب في أدب الرحلة ليست صورة مطابقة للواقع بالضرورة، وإنما هي صورة نصية تتداخل في بنائها الملاحظة المباشرة والانطباع الشخصي والرؤية الثقافية للرحالة.

([1]) ينظر: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار العلم، القاهرة، 1952م، 27-54.

([2]) ينظر: الدين، محمد دراز، 32.

ISSN : 2410-1818

وانطلاقًا من ذلك، يُقصد بالتمثيل الثقافي والديني في هذه الدراسة الكيفية التي صوّر بها الرحالة محمد بن ناصر العبودي المظاهر الثقافية والدينية في المجتمع النيجري من خلال خطابه الرحلي في كتاب «أيام في النيجر»، سواء ما اتصل بالعادات والتقاليد وأنماط العيش واللغة واللباس والبنية الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، أو ما ارتبط بالمؤسسات الدينية والتعليم الشرعي والشعائر الإسلامية وحضور الدين في المجال العام.

ولا يُفهم هذا التمثيل بوصفه انعكاسًا موضوعيًا ومباشرًا للواقع النيجري، بل بوصفه بناءً سرديًا وثقافيًا تشكّل عبر رؤية العبودي الذاتية، وخبرته الميدانية، وخلفيته الإسلامية والدعوية، وطبيعة الأهداف المعرفية والإصلاحية التي وجّهت مشروعه الرحلي في إفريقيا. ومن ثمّ فإن دراسة هذه التمثلات تمثل مدخلاً نقديًا للكشف عن صورة الثقافة والدين في الكتاب، واستجلاء الآليات السردية والوصفية والحجاجية التي أسهمت في تشكيل تلك الصورة، ومدى نجاح الرحالة في تقديم المجتمع النيجري بوصفه فضاءً ثقافيًا ودينيًا ذا خصوصية حضارية في المجتمع الإفريقي.

ISSN : 2410-1818

المبحث الأول: التمثيل الثقافي في النص الرحلي

يمثل البعد الثقافي أحد أبرز مكونات الخطاب الرحلي في كتاب أيام في النيجر لمحمد بن ناصر العبودي، إذ لا يقتصر الرحالة على تسجيل مشاهداته العابرة، وإنما يسعى إلى بناء صورة ثقافية متكاملة للمجتمع النيجري من خلال وصف المكان والإنسان، ورصد أنماط العيش والعلاقات الاجتماعية، والكشف عن الخصائص الحضارية التي تميز البيئة التي زارها. ويتجلى ذلك عبر مجموعة من الآليات السردية والوصفية التي تجعل الرحلة وثيقة ثقافية إلى جانب كونها نصًا أدبيًا.

أولًا: صورة المكان (النيجر: الطبيعة والعمران والفضاء الاجتماعي)

تحضر النيجر في خطاب العبودي بوصفها فضاءً جغرافيًا متنوعًا يجمع بين الصحراء والنهر والواحات والسهول الزراعية. ويبدأ الرحالة بتقديم صورة عامة للبلاد، فيصف شمالها بأنه امتداد صحراوي واسع من الصحراء الكبرى، في حين يتميز جنوبها بخصوبة الأرض ووفرة النشاط الزراعي المرتبط بنهر النيجر[1]، الذي يمثل محور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد[2]. ويشير إلى أن المناطق الجنوبية تضم المدن الكبرى والقرى الزراعية، وتنتج محاصيل متنوعة كالذرة والدخن والأرز والقطن والفول السوداني، مما يمنح المكان بعدًا إنتاجيًا وحضاريًا واضحًا.

وتتعمق صورة المكان أثناء انتقاله من جدة إلى نيامي، حيث يرصد التحول التدريجي للمشهد الطبيعي من البيئة الصحراوية إلى الأراضي المدارية ذات الأشجار المتناثرة والمراعي الواسعة، ويلاحظ أثر الأمطار الموسمية في تشكيل الغطاء النباتي وملامح الحياة الزراعية[3]. كما يبرز نهر النيجر بوصفه عنصرًا مركزيًا في تشكيل المجال المكاني، فهو ليس مجرد مجرى مائي، بل فضاء حضاري يلتف حوله السكان وتقوم عليه أنشطتهم المختلفة.

أما العمران، فيصوره العبودي من خلال رصده التفاوت بين الأبنية الحديثة المتأثرة بالنموذج الأوروبي وبين المساكن التقليدية المبنية من الطين والقش. فقد لفت نظره وجود الفنادق والمباني الحكومية الحديثة والطرق والجسور، وفي مقدمتها جسر كندي فوق نهر النيجر[4]، في مقابل

([1]) تجدر الإشارة إلى أن اسم النيجر مأخوذ من هذا النهر وهو حوالي (4200كم)، ويعد ثالث أنهار أفريقيا بعد النيل ونهر الكونغو، ويمتد من فوتا جالون في غينيا كوناكري مرورا بمالي ثم ينحرف نحو النيجر مجتازًا مناطق تلابيري وغوتي ونيامي العاصمة، وغايا، وبعد ذلك يدخل في نيجيريا من خلال سدّ كينجي، وفي النهاية يصبّ في خليج غينيا، ينظر: التعايش بين المسلمين والمسيحيين في جمهورية النيجر من دخول الاستعمار إلى الوقت الحاضر، مصطفي ماغاجي، رسالة دكتوراه جامعة الزيتونة، 2010م، نقلا منه من عدة مصادر، ينظر: 27.

([2]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 13-15.

([3]) موسم الأمطار في النيجر عادة ما يكون في شهر يونيو ويبلغ ذروته في يوليو وأغسطس وينتهي غالبا في سبتمبر أو أوائل أكتوبر.

([4]) أطلق على الجسر اسم الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي وتم بناؤه عام 1970م.

ISSN : 2410-1818

استمرار أنماط البناء التقليدية في الأحياء الشعبية والقرى، حيث تتخذ المساكن أشكالًا دائرية وأخرى مستطيلة من الطين والقش لتتلائم وتنسجم مع البيئة المحلية وظروف المناخ.

ومن ثم فإن المكان في النص الرحلي لا يُقدَّم في هذا الصّدد بوصفه إطارًا جغرافيًا جامدًا، وإنما بوصفه حيزًا ثقافيًا يكشف عن تاريخ المجتمع ومستوى تطوره وأنماط تفاعله مع البيئة.

ثانيًا: صورة الإنسان (العادات والتقاليد وأنماط العيش)

ينتقل العبودي من وصف المكان إلى وصف الإنسان النيجري بوصفه العنصر الأهم في تشكيل الهوية الثقافية للبلاد. ويبرز في خطابه اهتمام واضح بالتنوع الإثني الذي يميز المجتمع النيجري، حيث يشير إلى جماعات الهوسا والسونغاي -زرما[1] والطوارق والفولاني وغيرهم، موضحًا أن هذا التنوع لم يمنع تشكل هوية وطنية عامة تجمع بين هذه المكونات المختلفة.

وتكشف الرحلة عن صورة إيجابية للسكان من خلال إبراز قيم الكرم وحسن الاستقبال والبساطة في التعامل. فالرحالة يكرر الإشارة إلى مظاهر الضيافة التي لقيها في البيوت والمؤسسات والجمعيات الإسلامية، ويصف المجتمع النيجري بأنه مجتمع محافظ يحتفظ بكثير من عاداته الأصيلة رغم تأثره ببعض المظاهر الحديثة[2].

كما يهتم برصد أنماط الملبس، فيصف ملابس الطوارق الفضفاضة وأغطية الرأس التي تحميهم من حرارة الصحراء، ويتوقف عند أزياء النساء الإفريقيات وألوانها الزاهية، ويربط ذلك بالبيئة المناخية والاجتماعية. كذلك يسجل بعض العادات اليومية، مثل حمل النساء لأطفالهن على الظهور أثناء العمل والتنقل، وطرائق الجلوس والطعام، وأساليب البيع والشراء في الأسواق الشعبية.

وتحظى الأسواق الشعبية بمساحة مهمة في التمثيل الثقافي؛ إذ ينظر إليها بوصفها مرآة للحياة الاجتماعية والاقتصادية، فيصف السلع المحلية والمستوردة، وأنواع الأطعمة والخضروات والحبوب، وأنماط التبادل التجاري، بما يجعل السوق فضاءً كاشفًا عن البنية الثقافية للمجتمع[3].

([1]) السونغاي -زرما، قبيلة وعرقية واحدة، أحيانا يكتفى بسم واحد للإطلاق عليهم ويعيش هذا المجتمع في الإقليم الأوسط والغربي من جمهورية النيجر على ضفاف نهر النيجر، ينظر: الإسلام في جمهورية النيجر، عبد الرحمن أوسي المامي، رسالة دكتوراه جامعة الزيتونة، 2007م.

([2]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 53-54.

([3]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 49-50.

ISSN : 2410-1818

ثالثًا: آليات التمثيل الثقافي (الوصف، المقارنة، التقييم)

اعتمد العبودي في بناء الصورة الثقافية على ثلاث آليات رئيسة:

أولها: الوصف، وهو الآلية الأكثر حضورًا في النص، إذ تتتابع المشاهد الوصفية للطبيعة والعمران والناس والعادات، بما يمنح القارئ إحساسًا بالمشاهدة المباشرة. وقد اتسم وصفه بالدقة والتفصيل، مع الاستناد إلى الملاحظة الميدانية المباشرة[1].

وثانيها: المقارنة[2]، حيث يلجأ الرحالة باستمرار إلى مقارنة الواقع النيجري بما ألفه في الجزيرة العربية أو في بلدان عربية وإسلامية أخرى. وتتجلى هذه المقارنة في حديثه عن المناخ، والملابس، والعمران، والأسواق، ومستوى الخدمات، الأمر الذي يساعد القارئ العربي على استيعاب الفوارق الثقافية من خلال مرجعية مألوفة لديه.

وثالثها: التقييم، إذ لا يكتفي العبودي بالوصف المحايد، بل يضمن ملاحظاته أحكامًا قيمية صريحة، فيثني على بعض المظاهر مثل التمسك بالدين والكرم والبساطة، وينتقد بعض مظاهر التخلف العمراني أو ضعف الخدمات أو آثار الاستعمار الثقافية. ومن ثم يتحول النص من مجرد تسجيل للوقائع إلى خطاب تفسيري يحمل رؤية صاحبه وموقفه الثقافي.

رابعًا: جدلية الأنا والآخر في الخطاب الثقافي

تكشف الرحلة عن حضور واضح لجدلية الأنا والآخر[3]، وهي إحدى السمات المركزية في أدب الرحلة، وتمثّل في كنهها مشكلة ذات طابع اجتماعي في المقام الأول، إلى جانب ارتباطها بشكل وثيق بقضية الوجود[4]، فالعبودي ينطلق من مرجعية عربية إسلامية تشكل أفقه الثقافي في النظر إلى المجتمع النيجري، غير أن هذه المرجعية لا تدفعه إلى تبني موقف استعلائي تجاه الآخر، بل تسهم في بناء خطاب يقوم على التعارف والتقارب الثقافي.

فهو كثيرًا ما يؤكد الروابط الدينية والحضارية المشتركة بين العرب والمسلمين في النيجر[5]، ويرى في الإسلام عاملًا جامعًا يتجاوز الاختلافات العرقية واللغوية. كما يحرص على إبراز الجوانب

([1]) يمكن ملاحظ ذلك عند وصفه للمباني والمرافق العامة.

([2]) مما تميز به النص الرحلي عند الرحالة أسلوب المقارنة فهو يقارن جل ما يفق عليه بما يشابهها في بلدان أخرى.، مثال ذلك: عند وصفه بمبنى وزارة الخارجية وأنها الأجمل والأحسن في محيط غرب أفريقيا، ينظر: أيام في النيجر، محمد العبودي، 32.

([3]) الأنا هنا: هو ذات الرحالة وهويته الثقافية والدينية والحضارية، والآخر: هو المجتمع وثقافة المجتمع.

([4]) ينظر: جدلية الأنا والآخر في الخطاب الشعري في المفضليات، زينة غنيم، طبع بدعم من وزارة الثقافة، 2021م 26.

([5]) ولا غرو فإنّ أكثر قبائل النيجر إن لم تكن كلها قبائل مسلمة، ولها اندماج كبير بالثقافة العربية والإسلامية قبل دخول المستعمر في تلك البلاد.

ISSN : 2410-1818

الإيجابية في المجتمع النيجري، مع الإشارة إلى بعض مظاهر الاختلاف بوصفها خصائص ثقافية لا علامات نقص أو تخلف. ومن هنا تبدو صورة الآخر في الرحلة أقرب إلى صورة الشريك الحضاري منها إلى صورة الغريب أو النقيض الثقافي.

ويتفق هذا التوجه مع ما ذهب إليه بعض النقاد ومنظري الدراسات الثقافية من أن التمثيل الثقافي ليس انعكاسًا مباشرًا للواقع؛ وإنما هو بناء للمعنى يتم عبر منظومة من التصورات والخبرات الثقافية التي يحملها الكاتب[1]، كما ينسجم مع رؤية تزفيتان تودوروف التي تجعل صورة الآخر نتاجًا للتفاعل بين المعرفة والتجربة والموقف الحضاري[2].

وبذلك يتبين أن العبودي نجح في تقديم تمثيل ثقافي غني للمجتمع النيجري، جمع بين التوثيق والوصف والتحليل، وأسهم في بناء صورة متوازنة للمكان والإنسان، قائمة على الملاحظة المباشرة والانتماء الحضاري المشترك، وهو ما يمنح النص الرحلي قيمة أدبية وثقافية وتوثيقية في آن واحد.

(1) ينظر: التمثيل الثقافي: التمثلات الثقافية والممارسات الدلالية، ستيوارت هول، ترجمة: طلعت الشايب وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 25–35.

(2) ينظر: تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا: مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، دار سينا للنشر، القاهرة، 1991م، 186–190.

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني: التمثيل الديني في النص

يشكل الدين أحد المكونات المركزية في خطاب محمد بن ناصر العبودي في كتاب أيام في النيجر؛ إذ لا يظهر الإسلام في الرحلة بوصفه موضوعًا مستقلًا فحسب، وإنما بوصفه إطارًا مرجعيًا يحكم رؤية الرحالة للمكان والإنسان والثقافة والتاريخ. ومن ثم فإن التمثيل الديني في النص يتجاوز حدود الوصف الخارجي للمظاهر الدينية إلى بناء تصور شامل للمجتمع النيجري من منظور إسلامي يجمع بين التوثيق والدعوة والتقويم الحضاري.

أولًا: حضور الإسلام في المجتمع النيجري كما يصوره الكاتب

يقدم العبودي المجتمع النيجري بوصفه مجتمعًا إسلاميًا عريقًا تشكل الهوية الإسلامية أحد أهم مقوماته الحضارية. ويتجلى ذلك في كثرة المساجد وانتشار الشعائر الدينية وارتباط الحياة العامة بالمؤسسات الإسلامية. ففي وصفه لمدينة نيامي يولي عناية خاصة بالجامع الكبير، ويصف عمارته ومكانته في الحياة العامة، كما يبرز حضور المصلين واجتماعهم في المسجد بوصفه رمزًا لوحدة المجتمع المسلم. وقد أفرد صفحات متعددة للحديث عن الجامع الجديد في نيامي وما يمثله من مركز ديني وحضاري للمسلمين في البلاد[1].

كما يلاحظ الرحالة رسوخ الانتماء الإسلامي لدى مختلف الفئات الاجتماعية، ويؤكد أن الإسلام يمثل القاسم المشترك بين الجماعات العرقية المتعددة في النيجر، بما فيها الهوسا والزرما والطوارق والفولاني. ويظهر ذلك بوضوح في حديثه عن مدينة أغاديس، حيث يقرر أن اختلاف الأصول العرقية لا يحول دون اجتماع السكان تحت مظلة الإسلام، وأن الدين الإسلامي هو الرابط الجامع الذي يوحدهم رغم التباينات اللغوية والثقافية[2].

وتبرز مكانة الإسلام كذلك في العناية بالمساجد والكتاتيب والعلماء والدعاة، وفي احترام القرآن الكريم وأهله. ومن الشواهد الدالة على ذلك استقبال الرئيس النيجري للوفد الإسلامي[3] وتقديره للهدايا ذات الطابع الديني، ولا سيما المصحف الشريف وكسوة الكعبة المشرفة، وهو ما يكشف عن الحضور الرمزي للدين في المجالين الرسمي والشعبي[4].

([1]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 72-74.

([2]) ينظر: المصدر نفسه، 121-122.

([3]) كانت زيارة العبودي إبان فترة رئاسة الزعيم الراحل للنيجر العقيد حسين أو (سيني كونتشي) كما ينطق باللغة المحلية، وقد أشاد العبودي بأسلوب إدارته للبلاد. ينظر: أيام في النيجر، 44.

([4]) ينظر: المصدر نفسه، 98-100.

ISSN : 2410-1818

ثانيًا: الخطاب الدعوي والإصلاحي في الرحلة

لا يقف العبودي عند حدود الوصف والتسجيل، بل يمارس دورًا دعويًا إصلاحيًا واضحًا يجعل الرحلة جزءًا من مشروعه الفكري والدعوي. ويتجلى ذلك في اهتمامه بالجمعية الإسلامية في النيجر، وحرصه على متابعة أنشطتها ومشروعاتها التعليمية والدعوية، ومشاركته في اجتماعاتها ومناقشة احتياجاتها المستقبلية[1].

كما تتكرر في النص الإشارات إلى ضرورة دعم التعليم الإسلامي، وإنشاء المدارس والمساجد، وتقوية الصلات بين مسلمي إفريقيا والعالم الإسلامي. ويتضح هذا التوجه في حديثه مع الرئيس حسن كونتشي، حيث يركز على أهمية التعاون الإسلامي، وتعزيز الروابط مع المؤسسات الإسلامية العالمية، ولا سيما رابطة العالم الإسلامي، بوصفها أداة للنهوض بالأوضاع الدينية والثقافية للمسلمين في البلاد[2].

ويتجاوز الخطاب الإصلاحي الجانب المؤسسي إلى الجانب الاجتماعي؛ فالرحالة يقوّم بعض الممارسات والعادات في ضوء المرجعية الإسلامية، ويُظهر اهتمامًا بنشر الوعي الديني الصحيح، وهو ما يجعل النص قريبًا مما يسميه بعض الباحثين «الرحلة الدعوية» التي تتخذ من السرد وسيلة للإصلاح الاجتماعي والثقافي.

وقد أشار حسين نصار إلى أن الرحلات الحديثة ذات التوجه الإسلامي لا تكتفي بنقل المشاهدات، بل تؤدي وظيفة دعوية وإصلاحية تتجاوز الوصف إلى التوجيه والتقويم، وهو ما ينطبق بدرجة واضحة على رحلة العبودي.

ثالثًا: الدين بوصفه أداة لتفسير الواقع

من أبرز مظاهر التمثيل الديني في الكتاب أنّ العبودي يجعل الدين إطارًا تفسيريًا لفهم المجتمع النيجري وتاريخه وتحولاته، ويتجاوز حضور الدين في خطاب العبودي حدود التفسير إلى ممارسة وظيفة تقويمية واضحة؛ إذ لا يكتفي بوصف الظواهر الاجتماعية والثقافية، بل يقيسها ضمنيًا بمدى قربها أو بعدها عن المرجعية الإسلامية التي يتبناها. ومن ثم تتشكل في النص ثنائية دلالية تقوم على إبراز المظاهر التي تعكس رسوخ الهوية الإسلامية والإشادة بها، مقابل التنبيه إلى ما يراه مظاهر ضعف أو قصور في التعليم الشرعي أو الوعي الديني أو المؤسسات الدعوية[3]. وبذلك يغدو الدين مرجعًا قيّميًا يوجّه عملية الوصف ذاتها ويمنحها أبعادها التقييمية.

([1]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 103-104.

([2]) ينظر: المصدر نفسه، 100-102.

([3]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 69 -75.

ISSN : 2410-1818

كما أنّ العبّودي لا ينظر إلى الإسلام بوصفه عنصرًا من عناصر الثقافة النيجريّة فحسب، وإنما بوصفه الإطار الجامع الذي تنتظم داخله مختلف المظاهر الثقافية والاجتماعية. فالعادات والتقاليد والأنماط السلوكية لا تُعرض في كثير من المواضع باعتبارها ممارسات اجتماعية مستقلة، بل بوصفها تعبيرات محلية عن الانتماء الإسلامي، الأمر الذي يجعل الهوية الدينية مكوّنًا مركزيًا في بناء صورة المجتمع النيجري داخل النص الرحلي.

ومن زاوية نقدية، يمكن القول إنّ اعتماد الدين إطارًا مرجعيًا لفهم المجتمع النيجري أسهم في منح النص قدرًا من الانسجام الدلالي والوحدة التأويلية؛ إذ تتجمع الوقائع والأحداث والمشاهد المتفرقة داخل رؤية تفسيرية واحدة تربط بين الماضي والحاضر، وبين الفرد والجماعة، وبين الثقافة المحلية والانتماء الحضاري الأوسع للأمة الإسلامية. ولذلك لا يظهر الدين في الكتاب بوصفه موضوعًا من موضوعات الرحلة فحسب، بل بوصفه بنية معرفية تنتظم داخلها مختلف التمثلات الثقافية والاجتماعية التي يقدمها الرحالة.[1].

ومن ثم فإن الدين في النص لا يؤدي وظيفة شعائرية فحسب؛ وإنما يتحول إلى عدسة معرفية يقرأ الرحالة من خلالها الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي، وهو ما ينسجم من أنّ الدين يمثل «نسقًا ثقافيًا» يمنح الإنسان إطارًا لتفسير العالم وإضفاء المعنى على التجربة الإنسانية.

رابعًا: التداخل بين الثقافي والديني

تكشف الرحلة عن صعوبة الفصل بين البعدين الثقافي والديني في المجتمع النيجري؛ إذ تبدو كثير من الممارسات الاجتماعية والعادات اليومية مشبعة بالدلالات الدينية. فالملبس التقليدي، والمساجد التي شُيّدت، وأشكال التحية، والاحتفالات الاجتماعية، ومكانة العلماء، كلها عناصر ثقافية تحمل في الوقت نفسه مضامين دينية واضحة.

ويلاحظ العبودي أنّ الإسلام لم يلغِ الخصوصيات الثقافية المحلية، بل اندمج معها وأعاد تشكيلها ضمن إطار حضاري إسلامي عام. ولذلك فإنّ صورة المجتمع النيجري في الرحلة تقوم على تفاعل مستمر بين الانتماء الديني والهوية الثقافية؛ فالدين يمنح الثقافة معناها ومرجعيتها، بينما تمنح الثقافة الدين أشكال تجليه في الواقع الاجتماعي.

وبذلك يتضح أن التمثيل الديني في أيام في النيجر لا يقتصر على تسجيل المظاهر التعبدية والمؤسسات الدينية، بل يتجسد في بناء رؤية شاملة للمجتمع تجعل الإسلام محورًا لفهم الإنسان والمكان والثقافة، الأمر الذي أكسب النص بعدًا حضاريًا يتجاوز حدود الوصف الرحلي إلى التأويل الثقافي والدعوي.

([1]) ينظر: المصدر نفسه، 101-102.

ISSN : 2410-1818

يمكن ملاحظة أنّ هيمنة المرجعية الدينية على الخطاب الرحلي أسهمت في إنتاج صورة متماسكة ومتناغمة للمجتمع النيجري، غير أنها في الوقت نفسه جعلت بعض الظواهر الثقافية تُقرأ غالبًا من خلال بعدها الديني، الأمر الذي أدى إلى تراجع المسافة الفاصلة بين الوصف والتأويل، وبين المعاينة المباشرة والحكم القيمي. ومع ذلك فإنّ هذه السّمة لا تمثل نقصًا في الخطاب بقدر ما تعبر عن خصوصية الرؤية التي تحكم تجربة العبودي الرحلية، وتكشف عن طبيعة التفاعل بين الذات الرحالة وموضوعها الثقافي.

وعليه فإنّ التمثيل الديني في «أيام في النيجر» لا يقتصر على تقديم صورة للإسلام في المجتمع النيجري، بل يسهم في بناء تصور حضاري شامل تتداخل فيه عناصر الدين والثقافة والهوية، بما يجعل النص وثيقة أدبية وثقافية تكشف عن آليات تشكل صورة الآخر المسلم في الخطاب الرحلي العربي المعاصر، وعن الكيفية التي تُنتج بها الكتابة الرحلية معانيها ورؤاها من خلال تفاعل الوصف بالمرجعية الفكرية والثقافية للرحالة.

ISSN : 2410-1818

المبحث الثالث: البنية السردية وآليات الخطاب

يمثل كتاب أيام في النيجر لمحمد بن ناصر العبودي نموذجًا بارزًا لأدب الرحلة المعاصر الذي تتداخل فيه الوظائف التوثيقية والوصفية والتفسيرية والدعوية، حيث لا يقتصر النص على تسجيل المشاهدات، بل يبني خطابًا سرديًا متكاملًا يجمع بين الخبرة الشخصية والرؤية الحضارية. وتكشف البنية السردية للرحلة عن مجموعة من الآليات الفنية التي أسهمت في تشكيل صورة النيجر ثقافيًا ودينيًا واجتماعيًا داخل النص الرحلي.

أولًا: تقنيات السرد في أدب الرحلة

يقوم السرد في أيام في النيجر على تتابع زمني واضح يواكب حركة الرحالة وانتقاله بين الأمكنة، وهو ما يمنح النص طابعًا يومياتيًا قريبًا من السيرة الرحلية. فقد حرص العبودي على تأريخ أحداث الرحلة يومًا بيوم، مبتدئًا بذكر تاريخ المغادرة والوصول، ثم متابعة تفاصيل الزيارات واللقاءات وفق تسلسل زمني دقيق، كما يظهر في افتتاح الرحلة: «يوم السبت 1 ذي الحجة 1402هـ» ثم «يوم الأحد» و«يوم الاثنين» وما بعدها[1].

ويعتمد السارد (العبودي) كذلك على تقنية المشاهدة المباشرة، حيث يتصدر ضمير المتكلم مساحة واسعة من النص، فتكثر الأفعال الدالة على الرؤية والمعاينة مثل: «رأيت»، و«لاحظت»، و«ذهبنا»، و«دخلنا»، و«مررنا»، مما يضفي على السرد طابعًا توثيقيًا يقوم على المعاينة الشخصية لا على النقل غير المباشر. ويظهر ذلك في وصفه لمدينة نيامي وشوارعها وأسواقها ومتاحفها ومساجدها[2].

ومن التقنيات السردية البارزة كذلك المزج بين السرد والوصف؛ إذ لا يكتفي الرحالة بذكر الحدث، بل يوقف السرد مرارًا لصالح مقاطع وصفية مطولة تتناول المكان والطبيعة والعمران والعادات الاجتماعية، كما يوظف العبودي تقنية الحوار في مواضع متعددة، سواء من خلال حواراته مع المسؤولين أو مع الأدلاء والسكان المحليين، أو من خلال نقله لبعض الأسئلة والأجوبة التي دارت أثناء الرحلة، وهو ما يضفي على النص حيوية ويكسر رتابة السرد التقريري[3].

ثانيًا: اللغة الوصفية والتقريرية

تتسم لغة العبودي بوضوح العبارة ومباشرتها، وهي لغة يغلب عليها الطابع التقريري الذي يتناسب مع الوظيفة التوثيقية لأدب الرحلة. فالكاتب حريص على تقديم المعلومات الجغرافية والتاريخية

([1]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي،27- 46-61.

([2]) ينظر: المصدر نفسه، 30-54 62-69.

([3]) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 58-60- 63.

ISSN : 2410-1818

والاجتماعية بصورة دقيقة، كما يظهر في عرضه لإحصاءات السكان والمساحة واللغات والتاريخ السياسي للنيجر في مقدمة الكتاب[1].

ويظهر البعد التقريري أيضًا في وصفه للمدن والمؤسسات والطرق والمرافق العامة، حيث يعتمد على الأرقام والبيانات والحقائق الميدانية، مثل حديثه عن الفنادق والطرق والأسواق ومركز الملك فيصل والمكتبة الإسلامية والجمعية الإسلامية وغيرها[2].

غير أن هذه اللغة التقريرية لا تلغي حضور البعد الوصفي؛ إذ يكثر الكاتب من تصوير المشاهد الطبيعية والعمرانية والاجتماعية، مستعينًا بألفاظ حسية تستحضر الألوان والحركة والأصوات. ويتجلى ذلك في وصفه لنهر النيجر، وللواحات، ولأسواق نيامي، ولأزياء السكان المحليين، وللبيئة الصحراوية المحيطة بالمدينة[3].

ومن ثم فإنّ لغة الرحلة تقوم على توازن بين الوظيفة الإخبارية والوظيفة التصويرية؛ فهي لغة تنقل المعرفة بقدر ما تصنع المشهد وتستحضره أمام القارئ.

ثالثًا: البعد الإقناعي والإيديولوجي في النص

لا يخلو خطاب العبودي من نزعة إقناعية واضحة تنبع من خلفيته الفكرية والدعوية؛ فالرحلة ليست مجرد تسجيل للواقع، وإنما هي محاولة لتقديم رؤية معينة لهذا الواقع وتوجيه القارئ نحو تبنيها. ويتجلى ذلك في تركيزه المستمر على أهمية الإسلام في بناء المجتمع النيجري، وعلى دور المؤسسات الإسلامية في التعليم والإصلاح والتنمية الاجتماعية[4].

كما تتجلى النزعة الإقناعية في المقارنات المتكررة التي يعقدها الرحال في كتابه بين أوضاع النيجر وبعض البلدان العربية والإسلامية، أو بين الواقع الإفريقي والواقع الغربي، من خلال سعيه الحثيث إلى إبراز بعض القيم الإيجابية أو التنبيه إلى جوانب القصور والحاجة إلى الدعم والتعاون الإسلامي.

وتظهر الإيديولوجيا كذلك في الطريقة التي يفسر بها الظواهر الاجتماعية والثقافية؛ إذ يقرأ كثيرًا من المظاهر من منظور حضاري إسلامي يجعل الدين عنصرًا مفسرًا للهوية المجتمعيّة ولطبيعة

([1]) ينظر: المصدر نفسه، 13–24.

([2]) ينظر: المصدر نفسه، 30–58، 63–69.

([3]) ينظر: المصدر نفسه، 34–42– 48–54.

([4]) ينظر: المصدر نفسه، 56–64.

ISSN : 2410-1818

العلاقات الاجتماعية. ولذلك فإنّ الخطاب الرحلي عنده يتجاوز الوصف المحايد إلى ما يمكن تسميته بالخطاب التوجيهي أو الإصلاحي.

رابعًا: جماليات الخطاب الرحلي عند العبودي

تتبع جماليات الخطاب الرحلي عند العبودي من قدرته على الجمع بين التوثيق والمتعة السردية؛ فهو يقدم مادة معرفية غنية دون أن يفقد النص حيويته الفنية. ومن أبرز مظاهر هذه الجمالية تنوع مستويات الخطاب بين السرد والوصف والتعليق والتأمل والحوار، مما يمنح النص إيقاعًا متجددًا ويجنب القارئ الرتابة.

كما تتجلى الجمالية في الحضور المكثف للمكان؛ فالمدينة والنهر والسوق والمسجد والمتحف ليست مجرد فضاءات جامدة، وإنما تتحول إلى عناصر فاعلة في بناء المعنى وتشكيل التجربة الرحلية. ويتضح ذلك في وصف نهر النيجر وما يرتبط به من مشاهد اجتماعية وثقافية، وفي تصوير أسواق نيامي ومساجدها وأحيائها المختلفة[1].

ومن السّمات الجماليّة كذلك اعتماد الكاتب على المقارنة بوصفها أداة فنية ومعرفية؛ إذ يقارن بين البيئات والأعراف والأنماط العمرانية، فيكشف أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات، ويمنح القارئ رؤية أوسع للآخر الثقافي.

ويضاف إلى ذلك توظيف الصورة الفوتوغرافية المصاحبة للنص، التي تؤدي وظيفة توثيقية وجمالية في آنٍ واحد، إذ تسهم في تعزيز مصداقية السرد وتوسيع أفق التلقي، فتتكامل الصورة مع الكلمة في بناء المشهد الرحلي.

وبناءً على ذلك يمكن القول إنّ البنية السردية في أيام في النيجر تقوم على تفاعل السرد والوصف والتوثيق والتأويل، بينما تتشكل آليات الخطاب من اللغة التقريرية الواضحة، والرؤية الإقناعية ذات البعد الحضاري، والجماليات القائمة على المشاهدة والمقارنة واستحضار المكان؛ الأمر الذي يجعل الرحلة نصًا ثقافيًا يتجاوز حدود التسجيل المباشر إلى بناء معرفة بالذات والآخر في آن واحد.

(1) ينظر: أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، 34–45– 63–69.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى أنّ كتاب أيام في النيجر يمثل نموذجًا بارزًا لأدب الرحلة المعاصر الذي يتجاوز حدود الوصف الجغرافي والتوثيق المباشر إلى بناء تمثيلات ثقافية ودينية تعكس رؤية الرحالة وخلفيته الحضارية، وقد أظهرت الدراسة أنّ العبودي قدّم صورة متوازنة للمجتمع النيجري، مستندًا إلى الملاحظات الميدانية المباشرة، ومزاوجًا بين الوصف والتحليل والتقويم الثقافي.

وأثبتت الدراسة أن الدين شكّل المرجعية المركزية التي انتظمت حولها مختلف مكونات الخطاب الرحلي؛ إذ لم يُقدَّم الإسلام بوصفه مظهرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية فحسب، وإنما بوصفه إطارًا معرفيًا وتفسيريًا لفهم المجتمع النيجري وتاريخه وهويته الثقافية.

وفي الجانب الفني، بيّنت الدراسة أن البنية السردية للرحلة قامت على التفاعل بين السرد والوصف والتوثيق والتأويل، وأنّ الكاتب وظّف تقنيات المشاهدة المباشرة، والتسلسل الزمني، والحوار، والمقارنة الثقافية، بما منح النص حيوية فنية وقيمة معرفية في آن واحد. كما اتّسمت لغة الرحلة بالتوازن بين الوظيفة الإخبارية والوظيفة التصويرية، الأمر الذي أسهم في تعزيز قدرة النص على الإقناع والتأثير.

وتؤكد الدراسة أن صورة «الآخر» في الكتاب جاءت أقرب إلى صورة الشريك الحضاري منها إلى صورة المختلف أو النقيض الثقافي، وهو ما يعكس نزعةً حواريةً تقوم على التعارف والتقارب الثقافي في إطار المرجعية الإسلامية المشتركة. كما كشفت عن تداخل واضح بين البعدين الثقافي والديني في المجتمع النيجري؛ إذ بدت الثقافة المحلية متفاعلة مع المرجعية الإسلامية ومتشكّلة في ضوئها.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

1- أثبتت الدراسة أن أدب الرحلة عند العبودي يؤدي وظيفة ثقافية ومعرفية تتجاوز مجرد تسجيل وقائع السفر ووصف الأمكنة.

2- قدّم النص الرحلي تمثيلًا ثقافيًا واسعًا للمجتمع النيجري شمل المكان والإنسان والعادات والمؤسسات الاجتماعية.

3- شكّل الإسلام العنصر الأكثر حضورًا في بناء صورة المجتمع النيجري داخل الخطاب الرحلي.

4- اعتمد العبودي على آليات الوصف والمقارنة والتقييم في تشكيل التمثيلات الثقافية والدينية.

5- اتسمت صورة الآخر النيجري بالإيجابية والتقدير، وقامت على مبدأ الشراكة الحضارية والانتماء الإسلامي المشترك.

6- كشفت الدراسة عن تداخل عميق بين الثقافة والدين في المجتمع النيجري، بما يجعل الفصل بينهما أمرًا بالغ الصعوبة.

ISSN : 2410-1818

7- برزت النزعة الدعوية والإصلاحية بوصفها مكونًا أساسيًا في رؤية الرحالة وتفسيره للواقع.

قامت البنية السردية للرحلة على التفاعل بين السرد والوصف والتوثيق والتأويل، مما أكسب النص قيمة أدبية وتوثيقية في آن واحد.

8- أسهمت اللغة الوصفية والتقريرية في بناء خطاب يجمع بين الدقة المعرفية والمتعة السردية.

مثّل كتاب أيام في النيجر وثيقة ثقافية مهمة لفهم صورة المجتمع النيجري في الخطاب الرحلي العربي المعاصر.

ISSN : 2410-1818

المصادر والمراجع

1. أدب الرحلات، عبد الباسط بدر، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، بيروت، العدد3، مجلد1، 1415هـ/1995م.
2. الاستطراد السردي عند الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي كتاب: من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء أنموذجا، فلاح بن مرشد بالعتيبي، مجلة الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها، العدد 5، ج2.
3. الإسلام في جمهورية النيجر، عبد الرحمن أوسي المامي، رسالة دكتوراه جامعة الزيتونة، 2007م.
4. أيام في النيجر، محمد ناصر العبودي، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م.
5. التعايش بين المسلمين والمسيحيين في جمهورية النيجر من دخول الاستعمار إلى الوقت الحاضر، مصطفي ماغاجي، رسالة دكتوراه جامعة الزيتونة، 2010م.
6. التمثيل الثقافي: التمثلات الثقافية والممارسات الدلالية، ستيوارت هول، ترجمة: طلعت الشايب وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.
7. جدلية الأنا والآخر في الخطاب الشعري في المفضليات، زينة غنيم، طبع بدعم من وزارة الثقافة، 2021م.
8. الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار العلم، القاهرة، 1952م.
9. الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1978م.
10. زهرة بن يمنية، أدب الرحلة الحديث وخصائصه: قراءة في رحلات أبي راس الناصري الجزائري، مجلة ابن منظور لعلوم اللغة العربية، العدد الأول شعبان 1441ه/ 2020م.
11. سوسولوجيا الأدب، روبير اسكاربيت، ترجمة: آمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1983م.
12. السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003م.
13. عميد الرحالين، محمد بن ناصر العبودي، حياته، إسهاماته، جهوده، محمد بن عبد الله المشوح، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، ط2، 1435هـ/2014م.
14. فتح أمريكا: مسألة الآخر، تزفيتان تودوروف، ترجمة: بشير السباعي، دار سينا للنشر، القاهرة، 1991م.
15. كتابة الذات، دراسات في السيرة الذاتية، صالح معيض الغامدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013م.
16. لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1428ه/2008م.

ISSN : 2410-1818

17. معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مصر، ط1، ج5، 138.
18. المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1979م، ط3.
19. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، ط2، 1948م، مكتبة لبنان.

ISSN : 2410-1818

مجلـــة الأندلس للعلوم الإنسانيـة والاجتماعيـة
مجلـــة دوليـــة شهـريـــة علميـــة محكمـــة
الترقيـم الدولي الإلكتروني: ISSN:2410- 521X
الترقيـم الدولـي الورقـي :ISSN:2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلـة مفهرسـة فـي المواقـع الآتيـة :

العام	2021	2022	2023	2024	2025
معامل أرسيف	0.2692	0.1954	0.3759	0.3068	0.5978
معامل التأثير العربي	1.60	1.73	1.25	1.55	1.59